

## علاج الفتور

ما أنزل الله من داء إلا وأنزل له دواء، علمه من علمه، وجهله من جهله.

والفتور من أشد الأمراض المعنوية، وتؤكد خطورته حينها لا يحس الإنسان به، فيقضي عليه، كما تقضي بعض الأعراض على أصحابها حينها لا يدركون خطورتها فيتساهلون في علاجها أول الأمر، فيصعب بعد ذلك تلافيا والقضاء عليها.

والفتور طريق الانحراف والضلال - غالبًا - ذلك أن كثيراً من المنحرفين بعد استقامة والتزام مروا بمرحلة الفتور قبل انحرافهم وضلالهم.

ومن هنا تتأكد أهمية المبادرة إلى علاج الفتور، وعلاجه إما باتخاذ سبل الوقاية منه ابتداءً، وإما بعمل الأسباب التي تذهب به بعد وقوعه. وأهم سبل العلاج تلافي أسبابه، ذلك أننا إذا تلافينا أسباب الفتور استطعنا بإذن الله أن نسلك المنهج الصحيح للنجاة منه.

وقد أشرت عند ذكر كثير من الأسباب إلى طرق العلاج باختصار، ولذلك فسأحاول عدم التكرار هنا، إلا لما اعتبره أصلاً في العلاج وركنا من أركانه.

ولأنني أعتبر تلافي أسباب الفتور أهم وسيلة للنجاة منه، فسأذكر

وسائل وطرق العلاج بما يناسب المقام، ذلك أن هذه الوسائل والعوامل واضحة لا لبس فيها ولا غموض، مما يكفيننا مؤونة الشرح والتطويل، مما قد يصيب القارئ بالملل والفتور.

وباديء ذي بدء أقول: إن القناعة بخطورة الفتور ووجوب التخلص منه وقاية وعلاجاً ضمنانه معتبرة للإفادة من سبل العلاج وطرق الخلاص. وقد يرى البعض فيها ذكرته وما سأذكره أن هناك شيئاً من التكرار أو إغفال بعض الأسباب والوسائل، فأقول: إنني لا أدعى الكمال أو السلامة من النقص والتقصير، ولكن قد أكرر سبباً أو وسيلة، وذلك لأهميته واشتماله على زيادة لم يتضمناها في الموضع الذي ورد فيه أولاً.

أما إغفال ذكر بعض الأسباب والعوامل فذلك إما لوروده ضمناً فيما ذكر، أو لأنني لا أرى أهميته وقوة تأثيره، وقد يكون ذهولاً وتقصيراً، والكمال لله وحده.

والآن حان وقت الشروع في ذكر سبل وعوامل السلامة والنجاة من الفتور، ومن الله نستمد العون ونسأله التوفيق والسداد.

#### ١- تعاهد الإيمان وتجديده:

روى الحاكم والطبراني عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤/١) وقال الهيثمي في المجمع (٥٧/١) رواه الطبراني

وفي حديث آخر قال، صلى الله عليه وسلم: «ما من القلوب قلب إلا وله سحابةٌ كسحابةِ القمر، بينا القمر مضيءٌ إذ علتته سحابةٌ فأظلم، إذ تجلت عنه فأضاء»<sup>(١)</sup>.

إن تعاهد الإيمان وتجديده وقايةً بإذن الله من كثير من الأمراض ومنها الفتور، ولذلك ذكر شيخ الإسلام أنه دائماً يتعاهد إيمانه ومجده.

وعلى هذا الباب يحمل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ وقوله: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائفٌ من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٢٠١]. ومن هذا المنطلق زيادة الإيمان وصيانته: ﴿ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾ [سورة الفتح، الآية: ٤] ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً﴾. [سورة التوبة، الآية: ١٢٤].

ومما يزيد الإيمان كثرة العبادة، والمحافظة على السنن والرواتب، وتعاهد قيام الليل وصلاة التهجد، وعدم ترك الوتر لا في حضر ولا سفر. وكذلك صيام النوافل وطمأ الهواجر، وتحري الأيام الفاضلة للمبادرة إلى صيامها. ومما يزيد في الإيمان صدقة السر، وصلة الرحم والبر بالوالدين، والعطف على الفقراء والمساكين والأيتام، والإحسان إليهم، وتفقد أحوالهم. وقل مثل ذلك في العمرة والحج والتبكير إلى المساجد، والاعتكاف.

إن هذه العبادات تعطي المؤمن دفعة إيمانية، وزاداً في الطريق، وتخفف

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٩٦/٢) وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٢٢٦٨).

عنه ما يجده من مصائب ومصاعب، فقد كان صلى الله عليه وسلم، إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وكان يقول: «أرحنا يا بلال بالصلاة»<sup>(١)</sup>.

٢- مراقبة الله والإكثار من ذكره:

حقيقة المراقبة: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»<sup>(٢)</sup>. ومراقبة الله تستلزم عدة أمور:

١ - خوفه وخشيته.

٢ - تعظيمه جل وعلا.

٣ - الإيثار المطلق بعلمه وإحاطته وقدرته.

٤ - محبته ورجاؤه.

إن الذي يستصحب هذه الأركان الإيمانية لا يمكن أن يفتر لحظة عن مراقبة الله وعبادته، وما يعين المسلم على ذلك كثرة ذكر الله وتحميده وتمجيد سبانه وتعالى، ولذلك جاءت الآيات والأحاديث أمره بذكر الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً﴾ [سورة الاحزاب، الآية: ٤١]. ﴿ولذكر الله أكبر﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ٤٥]. ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ [سور الكهف، الآية: ٢٤]. ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾. [سور الرعد، الآية: ٢٨]. ووصف الرسول، صلى الله عليه وسلم، الأذان بـ «الدعوة

(١) أخرجه أبوداود (٢٩٦/٤) كتاب الادب رقم (٤٩٨٥، ٤٩٨٦) وأحمد في المسند (٣٦٤/٥، ٣٧١) وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٧٨٩٢).

(٢) جزء من حديث جبريل الطويل. أخرجه مسلم (٣٦/١) كتاب الإيمان رقم

(٨) والبخاري مختصراً (٢٠/٦، ٢١) كتاب التفسير سورة لقمان.

التامة»<sup>(١)</sup> ، وكان لا يفتر لسانه عن ذكر الله ، ولذلك قال : «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله»<sup>(٢)</sup> .

وقراءة القرآن من أفضل الذكر، ولذلك فعلى المسلم أن يكون له ورد يومي من كتاب الله ، وليحذر أن يكون ممن يهجر القرآن فيدخل فيمن يقول الرسول، صلى الله عليه وسلم، فيهم : ﴿يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾ . [سورة الفرقان، الآية : ٣٠] . والهجر يكون في العمل والتلاوة . ويجب أن يتدبر القرآن ويتفكر فيه ، ليكون له الأثر في علمه وعمله ، ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ [سورة عمدة، الآية : ٢٤] .

ومما يلحظ على بعض الدعاة وطلاب العلم في هذا العصر التساهل في هذا السبب والغفلة عنه ، حتى إن بعضهم قد لا يتم أذكار ما بعد الصلوات ، وأوراد الصباح والمساء بحجة الانشغال بالدعوة والعلم ، وهذا من الشيطان ، وكان السلف يواظبون على ذكر الله كما وصفهم الله بقوله : ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ [سورة آل عمران، الآية : ١٩١] . وتأمل هذه الآية : ﴿فاذكروني أذكركم﴾ . [سورة البقرة، الآية : ١٥٢] . وهل يضعف أو يهين من كان الله له ذاكراً؟ .

(١) أخرجه البخاري (١٥٣/١) كتاب الأذان، باب [٨] .

(٢) أخرجه الترمذي (٤٢٧/٤) كتاب الدعوات رقم (٣٣٧٥) وابن ماجه (١٢٤٦/٢)

كتاب الأدب رقم (٣٧٩٣) قال الترمذي : غريب من هذا الوجه وصححه الألباني

كما في صحيح الجامع رقم (٧٧٠٠) .

يقول ابن القيم - رحمه الله -<sup>(١)</sup> إن الذكر يعطي الذكور قوة، حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يطق فعله بدونه، وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية في مشيته وكلامه وإقدامه وكتابته أمراً عجيبيّاً، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعة وأكثر، وقد شاهد العسكر من قوته في الحرب أمراً عظيماً.

وقال في موضع آخر عن فوائد الذكر: إنه قوت القلب والروح، فإذا فقدته العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته، وحضرت شيخ الإسلام مرة صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إلي فقال: هذه غدوتي، ولم لم اتغذّ هذا الغداء سقطت قوتي<sup>(٢)</sup>.

وقد روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال له: «يا عبد الله بن قيس، قال: قلت: لبيك يا رسول الله، قال: ألا أدلك على كلمة من كنز من كنوز الجنة، قلت: بلى يا رسول الله فذاك أبي وأمي قال: لا حول ولا قوة إلا بالله»<sup>(١)</sup>.

وفي رواية: «يا عبد الله بن قيس، قل: لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز

(١) انظر الوابل الصيب ص ١٥٥.

(٢) انظر الوابل الصيب ص ٨٥.

(١) أخرجه البخاري (٧٥/٥) كتاب المغازي، باب [٣٨] ومسلم (٢٠٧٦/٤) كتاب

الذكر، رقم (٢٧٠٤).

من كنوز الجنة»<sup>(١)</sup>.

قال ابن القيم:

وهذه الكلمة لها تأثير عجيب في معاناة الأشغال الصعبة، وتحمل المشاق، والدخول على الملوك، ومن يخاف ركوب الأهوال<sup>(٢)</sup>.

### ٣. الإخلاص والتقوى:

كما أن ضعف الإخلاص سبب من أسباب الفتور، فإن الإخلاص وتعاهده وتجديده من أعظم أسباب الوقاية من الفتور، ذلك أن المخلص المتقي يجعل الله في قلبه نوراً وفرقاناً، ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فِرْقَانًا﴾ [سورة الانفال، الآية: ٢٩]. ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾، [سورة الأنعام، الآية: ١٢٢]. ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمَنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلِينَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة الحديد، الآية: ٢٨].

والمزالتق في طريق الداعية وطلب العلم كثيرة جداً، كالشهوة الخفية، والعجب، والتعلق بالدنيا، وهذه مهلكات علاجها الإخلاص والتقوى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لِنَهْدِيَهُمْ سَبِيلَنَا وَإِنِ اللَّهُ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾. [سورة العنكبوت، الآية: ٦٩]. ولقد رأينا وعاصرنا علماء بلغوا فوق الشانين وهم في قمة نشاطهم، وكانهم في سن الثلاثين، وسر ذلك تقواهم وإخلاصهم -

(١) انظر صحيح مسلم (٤/٢٠٧٦، ٢٠٦٧) كتاب الذكر، رقم (٢٧٠٤).

(٢) انظر الوابل الصيب ص ١٥٧.

هكذا نحسبهم والله حسبيهم ولا نزكي على الله أحداً، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

#### ٤ . تصفية القلوب:

امتن الله على نبيه، صلى الله عليه وسلم، بأن شرح له صدره ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ . [سورة الشرح، الآية: ١]. ووصف أهل الجنة ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ [سورة الاعراف، الآية: ٤٣]. وأثنى على المؤمنين الذين يقولون في دعائهم: ﴿ ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ﴾ [سورة الحشر، الآية: ١٠]. ووصف المؤمن والكافر في آية واحدة فقال: ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنها يصعّد في السماء ﴾ . [سورة الأنعام، الآية: ١٢٥].

إن تصفية القلوب من الأحقاد والحسد وسوء الظن من أعظم أسباب شرح الصدر، بل إن شرح الصدر وسلامة القلب مقترنان، وليس أقسى على المرء ولا أثقل من قلب مليء بالغل والهوى وسائر الأدناس، يقعده عن العمل ولا يهنأ بعيش، أما صاحب القلب السليم، والصدر المنشرح الحليم، فإنه يتجدد ويزداد نشاطاً وإشراقاً، وهكذا كان أبونا إبراهيم عليه السلام ﴿ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ . [سورة الصافات، الآية: ٨٤].

وبما يساهم في تصفية القلوب، وتنقيتها من الضغائن ما يلي:

أ . استمرار الصلة بين العاملين في حقل الدعوة إلى الله، وفتح باب المناقشة وتقريب وجهات النظر، لأن البعد جفاء، والخلاف شرّ.

(١) وشرح الصدر حساً ومعنى، حيث إن الشرح المعنوي أثر من الحسن.

ب . التماس الأعداء، وحمل الناس على أحسن المحامل، ودفع السيئة بالחסنة ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ . [سورة فصلت، الآية: ٣٤]. والعفوزينة الرجال ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ . [سورة الشورى، الآية: ٤٠].

ج . المصارحة بين المسلم وإخوانه، وعدم الاستماع إلى الأقاويل والشائيات، والمبادرة إلى إزالة ما يقع، والتحقق مما تسمع، لأن التأخر والتسويف يزيد الأمر سوءاً وفتوراً.

د . تذكر دائماً قصة الصحابي الذي شهد له الرسول، صلى الله عليه وسلم، بالجنة، وكان من صفاته: إنه ما بات ليلة وفي قلبه غلٌّ على مسلم

ومن صفات المؤمنين إنهم يقولون: ﴿ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا﴾ . [سور الحشر، الآية: ١٠]. فكن منهم وفقك الله .

#### ٥ . طلب العلم والمواظبة على الدروس وخلق الخبز والمحاضرات.

العلم نور يرفع صاحبه إلى الدرجات العلى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ . [سورة المجادلة، الآية: ١١]. ، والعلماء هم الذين يخشون الله لأنهم يعرفونه ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ . [سورة فاطر، الآية: ٢٨]. وشتان بين عالم وجاهل: ﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ . [سورة الزمر، الآية: ٩]. إن العالم الرباني يزداد عطاؤه يوماً بعد يوم، فعلى قدر زيادة علمه يزيد عمله، لأنه يزداد معرفة بالله وبحقّه وما أعدّه للعاملين، ولذلك كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب.

والمواظبة على الدروس والمحاضرات تزيد العلم وتنمية وتدفعه إلى الإمام، وحلق الذكر تجلوا ما يلحق المؤمن من صداد وضعف وفتور، وتبث فيه نشاطاً وحيوية وحماساً.

ومما يدخل في باب العلم:

**• العلم بفضل ومكانة العمل:**

مما يزيد في إيمان المسلم ويدفعه إلى العمل والإنتاج، ويبعد عنه الكسل والفتور، معرفة فضل العمل الذي يقوم به ومكانته الشرعية. ولذلك قال الخضر لموسى عليه السلام - ﴿وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً﴾. [سورة الكهف، الآية: ٦٨].

إنه لا يستوي رجلان: رجل يؤدي العبادة وهو يعلم أنها عبادة لكنه لا يعلم فضلها وما أعدّه الله للعاملين، وآخر قد فقه ما ورد فيها من نصوص تبين منزلتها وما أعدّه الله من أجر عظيم لمن قام بها.

ولذلك لما ذكر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثقل الصلاة على المنافقين قال: «ولو يعلمون ما فيها لأتوهما ولو حبوا»<sup>(١)</sup>، فجعل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، معرفة الأجر سبباً لنبذ الفتور والكسل، حتى لو كان من أسوأ أنواع الفتور، وهو فتور المنافقين. فإذا كانت معرفة الأجر والمثوبة ستؤثر في المنافقين، فلاشك أن تأثيرها في المؤمنين أقوى وأرجى. وكذلك فضل الصبر على الطاعة وعن المعصية، العلم به يعطي المسلم

(١) أخرجه البخاري (١٦٠/١) كتاب الأذان باب [٣٤] ومسلم (٤٥١/١) كتاب

المساجد رقم (٦٥١) [٢٥٢].

قوة وقدرة على التحمل، ولو تأمل قوله تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ [سورة الزمر، الآية: ١٠] لكان حصناً عن الضعف والتراجع.

وكذلك التذكير بفضل الأعمال، والتحذير من عواقب الإهمال والتقصير والتفريط، مما يسهم في علاج هذا المرض والوقاية منه، فكم من إنسان سمع موعظة فزادته إيماناً ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾. [سورة الحج، الآية: ٣٥].

وكم من إنسان سمع موعظة فأقلع عما هو فيه وجدد إيمانه ونشاطه ونبذ الفتور خلفه ظهرياً، وصدق الله العظيم ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ [سورة الذاريات، الآية: ٥٥].

### ٦. فقه الواقع:

وهو من فروع العلم، ولكن لأهميته وعلاقته المباشرة بهذا الموضوع أفردته تنويهاً بأثره في علاج الفتور.

ذلك أن إدراك المسلم لواقعه وما يجري فيه، وفقهه لهذا الواقع، بما فيه من مأسٍ وما يتطلبه من جهود وعمل متواصل يبعد عنه أي فتور أو تراخي، إن كان في القلب إيمان وإسلام. فكيف يركن المسلم للدعة وهو يرى أمته يحيط بها الأعداء، ويتنادون من كل حذب وصوب للإجهاز عليها، والعبث في أرضها وخيراتها؟

كيف يتراخي وهو يشاهد بلاد المسلمين مستباحة من قبل اليهود والنصارى، فمن أفغانستان إلى البوسنة والمهرسك إلى الصومال، وقبل ذلك

فلسطين والفلبين وأرتيريا وزنجبار.

هل يمكن لطبيب محترم أن ينام ملء جفونه وهو يرى رجلاً مضرّجاً بدماثة، يحتاج إلى نجده وإسعاف.

هل يمكن لجيش جاد يرى العدو على حدود بلده ثم يلهو ويعبث، دون أن يعلن حالة استنفار ومرابطة.

هل يمكن لعالم رباني أن ينزل بلدًا يعيش أهله بين أميّه وجهل فينزي وينطوي، دون أن ينصب نفسه معلمًا هاديًا.

كل ذلك لا يكون، فكذلك من يفقه واقع أمته وحالها، كيف يجد الفتور إلى قلبه طريقًا، وإلى عمله سبيلًا، هذا بعيد كبعد عاد وثمود، إلا من عاش الهوان ورضع الذل والعبودية وفقد الإحساس ﴿ومن بين الله فماله من مكرم﴾. [سورة الحج، الآية: ١٨].

من بين يسهل الهوان عليه

مالجرح بميت إيلام

أما إذا جهل واقعه، فأبشر بطول سلامة يا مربع.

#### ٧ - سلامة المنهج وتأصيل المنطلقات والعناية بمنهج التلقي.

مما يجب أن يعنى به طالب العلم والداعية سلامة المنهج الذي يسلكه في طلب العلم والدعوة إلى الله، ذلك أننا في زمن كثرت فيه المدارس الدعوية والمناهج العلمية، واختلط الحابل فيها بالنابل، وكل يدعي وصلًا بليلى.

إن سلامة المنهج يقي الداعية التذبذب والحيرة والارتياب، ويعطيه الطمأنينة والثقة والثبات، ذلك أنه إذا اتبع منهجًا فيه خلل فلن يحقق

الأهداف الشرعية التي يسعى إليها، ثم إنه - غالبًا - سيكتشف الخلل في منهجه بعد أن يكون بذل جهودًا حسيّة ومعنوية في هذا الطريق المعوجّ، مما يورث حسرة وألمًا على ما مضى من زمن وما بذلت من جهود، ثم قد يصاب بنوع من الإحباط واليأس، وقد يصل إلى مرحلة الشك، ويقول له شيطانه: وما يدريك أن هذا المنهج صحيح.

إن الالتزام بمنهج أهل السنة والجماعة، والسير على هدي السلف الصالح عامل مؤثر في الاستقرار والاستمرار، ويشيع في النفس راحة وهدوءًا، وكلما مرّت الأيام ازداد رسوخًا وبقينًا.

وسلامة الأسلوب - أيضًا - له أثره الفعّال في تحقيق الأهداف وجني الثمار، وهذا الأمر دافع لمزيد من العطاء والتفائل الذين يساهمان في الثبات والبقاء. وعلى طلاب العلم والدعاة التأكد من سلامة المنهج والأسلوب، ديانة أولاً، ونتيجة ثانيًا، والحذر من المناهج المنحرفة والبدعية، و«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»<sup>(١)</sup> و:

من غرس الحنظل لا يرتجي

أن يجتني السكر من غرسته

إن تأصيل المنطلقات والأعمال، وربطها بالكتاب والسنة، وقاية بإذن الله من الحيرة والتذبذب، وعامل من أهم عوامل الثبات والاستقرار والاستمرار. وكل ما مضى يدور على أصل عظيم وهو العناية بمنهج التلقي، ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾. [سورة الحشر، الآية: ٧].

(١) أخرجه البخاري (١٦٧/٣) كتاب الصلح، باب [٥]. ومسلم (١٣٤٣/٣) كتاب الأضحية، رقم (١٧١٨).

## ٨ - الوسطية:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٤٣]. والوسطية من سمات هذه الأمة، كالتخيرية ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾. [سورة آل عمران، الآية: ١١٠]. والوسطية كما تكون في العقيدة تكون في الأعمال، والذين يجانبون هذا المنهج كالغلاة والمتشددين سرعان ما يفترون وبخاصة الغلو والتشدد في الأعمال من العبادة وطلب العلم والدعوة إلى الله، وقد سبق تفصيل ذلك في الأسباب.

وقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة بلزوم منهج الوسطية والبعد عن التكلف والتشدد والتنطع، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٨٦]. ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾. [سورة الحج، الآية: ٧٨]. ﴿فإن مع العسر يسراً. إن مع العسر يسراً﴾. [سورة الشرح، الآيتان: ٦٠، ٥]. ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾. [سورة الإسراء، الآية: ٢٩]. ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾. [سورة الأعراف، الآية: ٣٢] ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾ [سورة النساء، الآية: ١٧١]. ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٣١]. ومن السنة والأثر «هلك المتنتعون، هلك المتنتعون»<sup>(١)</sup>، «عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا»<sup>(٢)</sup>، «وياكم والغلو، فإنما أهلك

(١) أخرجه مسلم (٢٠٥٥/٤) كتاب العلم رقم (٢٦٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٦/١) كتاب الإيمان، باب [٣٢] ومسلم (٥٤٢/١) كتاب

صلاة المسافرين رقم (٧٨٥) [٢١٨]

من كان قبلكم الغلو»<sup>(١)</sup>، «إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه»<sup>(٢)</sup>. «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا»<sup>(٣)</sup>. «أحبُّ العمل إلى الله أدومُهُ وإن قلَّ»<sup>(٤)</sup>، «وكان أحبَّ العمل إليه ماداوم عليه صاحبه»<sup>(٥)</sup>.  
 إن الوسطية منهج حياة، وهي من فقه هذا الدين، ذلك أن الالتزام بها ضمانته لتجاوز المحن والابتلاءات، فيصبح لدى المسلم قدرة عجيبة لتجاوز المحن والشدائد، وذلك بإعماله النصوص الشرعية في مواضعها، ومراعاة تغيُّر الأمكنة والأزمان والأحوال، دون إخلال بأصول هذا الدين، اضطراباً أو جموداً، و«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»<sup>(٦)</sup>.  
 وإن أزدت مزيد بيان لتربية رسول الله، صلى الله عليه وسلم، صحابته

(١) أخرجه النسائي (٢٦٨/٥) كتاب مناسك الحج، رقم (٣٠٥٧). وابن ماجه (١٠٠٨/٢) كتاب المناسك، رقم (٣٠٢٩). وأحمد (٢١٥/١)، وصححه الحاكم (٤٦٦/١) ووافقه الذهبي، ووافقها الألباني كما في السلسلة الصحيحة رقم (١٢٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٥/١) كتاب الإيمان، باب [٢٩].

(٣) أخرجه البخاري (١٠٨/٥) كتاب المغازي ومسلم (١٣٥٩/٣) كتاب الجهاد، رقم (١٧٣٣).

(٤) أخرجه البخاري (١٨٢/٧) كتاب الرقاق، باب [١٨] ومسلم (٥٤١/١) كتاب صلاة المسافرين رقم (٧٨٢، ٢١٦، ٢١٨).

(٥) أخرجه البخاري (١٦/١) كتاب الإيمان، باب [٣٢] ومسلم (٥٤٢/١) كتاب صلاة المسافرين رقم (٧٨٥، ٢١٨).

(٦) أخرجه البخاري (٢٥/١) كتاب العلم، باب [١٠] ومسلم (١٥٢٤/٣) كتاب الإمامة، رقم (١٠٣٧، ١٧٥).

على منهج الوسطية، فأقرأ ما يلي وتأمل :

١ - روى الإمام أحمد في مسنده عن عبدالله بن عمرو أنه تزوج امرأة من قريش، فكان لا يأتيها، كان يشغله الصوم والصلاة، فذكر ذلك للنبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: صم من كل شهر ثلاثة أيام، قال: إني أطيق أكثر من ذلك، فما زال به حتى قال له: صم يوماً وأفطر يوماً، قال له: أقرأ القرآن في كل شهر، قال: إني أطيق أكثر من ذلك، قال: أقرأ في كل خمس عشرة، قال: إني أطيق أكثر من ذلك، قال اقرأه في كل سبع، حتى قال: أقرأ في كل ثلاث،<sup>(١)</sup>

٢ - قصة الثلاثة نفر الذين سألوا أزواج الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن عمله في السرّ، فكأنهم تقالوها، فقال أحدهم.. « الحديث<sup>(٢)</sup>. وهو مشهور ومعروف، وفيه من الدروس والعبر والتربية على المنهج ما يحتاج إليه كل مسلم<sup>(٣)</sup>.

#### ٩ - تنظيم الوقت ومحاسبة النفس<sup>(٤)</sup> :

مما يساعد في إنجاز الأعمال وأدائها الدقة في تنظيم الوقت، أرأيت الصلوات الخمس لو لم تكن محددة بوقت معلوم، وترك للناس اختيار الوقت

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥/٢، ٢٤٦) كتاب الصيام، باب [٥٨، ٥٦].

ومسلم (٨١٢/٢، ٨١٣) كتاب الصيام، رقم (١١٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (١١٦/٦) كتاب النكاح، باب [١] ومسلم (١٠٢٠/٢) كتاب النكاح رقم (١٤٠١).

(٣) انظر كتاب الغلو لعبد الرحمن اللويحق فقد أجاد وأفاد.

(٤) ويدخل في ذلك نقد النفس، وتقبل نقد الآخرين، فالمسلم مرآة أخيه المسلم، دون مبالغة أو غلو: ومن دعا الناس إلى ذمة ذممه بالحق وبالباطل.

المناسب لأدائها، كم من الناس سيصلي في كل يوم خمس صلوات دون تأجيل أو تسويق، بينما تحديد وقتها يجعل المسلم يمضي عمره وهو يؤديها بيسر وسهولة وراحة، حتى إنه يألّفها ويجد سلوته فيها، وذلك على قدر إيمانه وتقواه ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ [سورة البقرة، الآية: ٤٥] «يا بلال أرحنا بالصلاة»<sup>(١)</sup>.

وكذلك الصيام، لو طلب من المسلمين صيام ثلاثين يوماً دون تحديد شهر معين، يا ترى كيف تكون حال الناس في ذلك؟  
بينما تحديده في شهر معين في السنة جعل له ميزة وخاصة، والمسلمون ينتظرون قدومه بشوق ولهفة، ويتطلعون إليه بمحبة ورغبة. وقل مثل ذلك في جميع الأمور التي حددها الإسلام ووقتها.

فإذا نظّم المسلم وقته، وحاسب نفسه على ذلك بورك له فيه، وكلما مضت الأيام إذا هو يزداد عملاً ونشاطاً، حتى يصبح هذا الأمر إلفة وسجية، لو ضاعت عليه ساعة من حياته لوجد لها أثراً وحسرة، فمثل هذا كيف يضيع يوماً أو شهراً، أو يتراخى عن عمل ذي بال، هذا لا يكون، وأسأل التاريخ عن سلفنا الصالح كيف كانوا يعيشون، وانظر إلى ما قدموا لهذه الأمة من أعمال عظيمة في سنين قليلة، وذلك لتقواهم ودقتهم في أوقاتهم، ومحافظتهم عليها، ومن ثمّ محاسبة النفس على ذلك<sup>(٢)</sup>، فسجلوا

(١) أخرجه أبو داود (٢٩٦/٤) كتاب الأدب، رقم (٤٩٨٥، ٤٩٨٦) وأحمد في المسند (٣٦٤/٥، ٣٧١).

وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٧٨٩٢).

(٢) فقد ورد عن الفاروق قوله: حاسبوا أنفسكم قبل أن تمسبوا.

صفحات بيضاء في جبين التاريخ، فهم رهبان بالليل أسود بالنهار، لا يعرفون خملاً أو تسويقاً أو فتوراً.

### ١٠- لزوم الجماعة:

مما أوصى به الرسول، صلى الله عليه وسلم، حذيفة - رضي الله عنه - وهو يسأله عن المخرج عند حدوث الفتن، أن قال له - عندما قال حذيفة فما تأمري - قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»<sup>(١)</sup>.

وقال، صلى الله عليه وسلم، في حديث آخر يوصي أمته: «عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوة الجنة فليلزم الجماعة»<sup>(٢)</sup>.

قال، صلى الله عليه وسلم، لأصحابه: «وأمركم بالسمع والطاعة والهجرة والجهاد والجماعة، فإن من فارق الجماعة شبراً فإت، إلا كانت ميتة ميتة جاهلية»<sup>(٣)</sup>.

إن الجماعة هنا، هي جماعة أهل السنة والجماعة، وهي الفرقة الناجية، والطائفة المنصورة، وهي أعم من الجماعة الخاصة، حيث إن بعض الناس

(١) أخرجه البخاري (٩٣/٨) كتاب الفتن، باب [١١] ومسلم (١٤٧٥/٣) كتاب الإمامة رقم (١٨٤٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٤٠٤/٤) كتاب الفتن، رقم (٢١٦٥) وأحمد في المسند (١٨/١) وقال الترمذي: حسن صحيح غريب من هذا الوجه وصححه الألباني في ترجمته لأحاديث السنة لابن أبي عاصم.

(٣) أخرجه البخاري (٨٧/٨) كتاب الفتن، باب [٢] ومسلم (١٤٧٧/٣) كتاب الإمامة رقم (١٨٤٩).

ينزلون هذه الأحاديث على جماعاتهم الخاصة، وإن كانت هذه الجماعات داخلة في جماعة المسلمين الواردة في النصوص، إذا كانت ملتزمة بالمنهج الصحيح، بعيدة عن الابتداع والانحراف والضلال.

إن التزام المسلم بجماعة المسلمين، واختياره الرفقة الصالحة والوسط الطيب سبب للنجاة من كثير من الشرور، ومن ذلك التراخي والفتور، حيث إن إخوانه يشدون من عضده، ويعينونه على تجاوز بنيات الطريق، ويحملونه على الجد والنشاط، ويبثون فيه روح التنافس والمسابقة: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾. [سورة الحديد، الآية: ٢١].

ولا يتصور أن أحد منا أنه يمكن أن يعيش وحده، فذلك هو الهلاك بعينه، إلا وقت أوان العزلة الشرعية، وتلك لم يحن وقتها بعد، «وإنها يأكل الذئب من الغنم القاصية».

### ١١ - تعاهد الفاترين:

مما يلحظ على كثير من طلاب العلم والدعاة أنه إذا فتر أحد إخوانهم تخلّوا عنه وأهملوه، ومن ثم يزداد تقصيراً وفتوراً، وقد يهلك وهم لا يشعرون. وقد شكى كثير من مرّ بهذه الحالة من هذا الواقع.

والواجب أن يتفقد الدعاة وطلاب العلم إخوانهم، ويتعاهدوهم، فإذا علموا أن أحدهم قد دبّ الفتور في أوصاله كثّفوا زيارتهم له، واستنصهوا همته، وشدّوا من أزره، وخوّفوه بالله، وبحشوا عن سبب فتوره ونفوره، فإن كانت مشكلة حلّوها، أو قضية عاجلها، أو رفقه سيئة أبعدها، ويستمروا على ذلك حتى تعود المياه إلى مجاريها، أو يعذروا أمام الله ﴿والله بصير بما

يعملون﴾ [سورة البقرة، الآية: ٩٦]. وعليهم بالرفق وحسن الصحبة، فإن الرفق ما كان في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه، مع عدم تضخيم الأخطاء والسلبيات مما يسبب الوحشة والفتور.

### ١٢. التربية الشاملة المتكاملة:

لا يخفى ما للتربية من أثر في حياة الإنسان، ولذلك قال النبي، صلى الله عليه وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»<sup>(١)</sup>.

وقد اختلفت المدارس التربوية المعاصرة، ونتيجة لذلك رأينا الاختلاف والتباين في سلوك الناس وتفكيرهم.

وقد غلب على كثير من المدارس التربوية الدعوية تغليب جانب على جانب، والعناية به دون سواه.

والمنهج السليم المستقى من الكتاب والسنة هو المنهج الشامل المتكامل، الذي يوازن بين جميع الحقوق والمتطلبات الشرعية، ويربي المسلم على حسن أدائها وإتقانها.

إن تربية الشخصية المتوازنة يعطيها قوة في الانطلاقة، وقدرة على الاستمرار، وبعداً عن التراجع والاضطراب، ذلك أنه يسير والأمور واضحة لديه، يعطي كل جانب ما يستحقه من رعاية واهتمام، دون إهمال أو تجاوز. ثم إن تربية النشء على العبادة والعلم والدعوة منذ الصغر يجعل هذه الأمور جزءاً من حياته، يألفها وتآلفه، يستوحش حال فقدتها، ويحزن

(١) أخرجه البخاري (١٠٤/٢) كتاب الجنائز، باب [٩٣] ومسلم (٢٠٤٧/٤) كتاب

إن حرم منها، حتى إنه إذا مرض فحال المرض بينه وبينها كان أشدّ ألماً لمفارقتها منه لمرضه، بخلاف غيره ممن يسرّ بالمرض والسفر وسائر الأعدار التي تبرر له التراخي والانقطاع، وكلما كانت التربية أشمل وأكمل كانت أبقى وأنقى وأدوم، وعلى قدر الخلل يكون التقصير.

ومن جوانب التربية التي تقي من الفتور بإذن الله :

أ. التربية على المبادرة الذاتية ونبت الانكالية والاعتماد على الآخرين، على أن يحلظ أهمية التوازن في هذا الأمر.

ب. التريية على الشعور بالمسئولية، والقيام بما أوجبه الله عليه، والتخلص مما يحول دون ذلك .

ومن تربية رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لصحابته أن رباهم على الاعتماد على أنفسهم، دون الاتكال على الآخرين، حتى إنه بايع بعضهم على ذلك، كما روى الإمام مسلم في حديث أبي مسلم الخولاني عن عوف بن مالك أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بايعهم «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس، وتطيعوا - وأسروا كلمة خفيفة - : ولا تسألوا الناس شيئاً»<sup>(١)</sup>.

وروى النسائي عن ثوبان، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «من يضمن لي واحدة وله الجنة؛ ألا يسأل الناس شيئاً»<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه مسلم (٧٢١/٢) كتاب الزكاة، رقم (١٠٨).

(٢) أخرجه أبو داود (١٢١/٢) كتاب الزكاة رقم (١٦٤٣) وابن ماجه (٥٨٨/١) كتاب الزكاة، رقم (١٨٣٧) وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٦٦٠٣).

وهذه الأحاديث وإن كانت في سؤال الناس أموالهم ونحو ذلك، إلا أن الصحابة فهموا أنها في كل شيء، أو تركوا ذلك تورعاً لحماية للعهد والبيعة، فكان أحدهم يسقط سوطه فينزل من دابته ويأخذه ولا يسأل الناس أن يعطوه إياه، فله درهم.

### ١٣- تنويع العبادة والعمل،

النفس ملولة تكره الرتابة والجمود، وتحبّ التجديد والتنويع، ومراعاة النفس أمر مطلوب شرعاً، فإن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كان يتخول صحابته بالموعظة مخافة السامة عليهم، وابن مسعود - رضي الله عنه - كان يمنعه من أن يحدث أصحابه كل يوم لثلاث يملهم، وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يقول: إن للنفس إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فحزها بالعزيمة وإذا أدبرت فاقصرها على الفرائض.

ولذلك فإن التجديد والتنويع في حدود ما شرع الله، يعطى النفس دفعة وحيوية ونشاطاً، فكم مارس الإنسان من عمل حتى إذا أدركه الفتور فيه وثقل عليه انتقل إلى غيره، فيتجدد نشاطه، وتقوى عزمته، ويجد فيه لذة وممتعة، ولو استمر في العمل الأول لخارت قواه وهنت عزمته، وربّما أدى به إلى كرهه والنفور منه.

وقد أرشد النبي، صلى الله عليه وسلم، أمته إذا عجزوا عن عمل أن ينتقلوا إلى غيره من الأعمال التي يستطيعونها، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قلت يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: الإيمان بالله والجهاد في سبيله، قال: قلت: أي الرقاب أفضل، قال: أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمناً.

قال: قلت: فإن لم أفعل؟ قال: تعين صانعاً أو تصنع لأخرق.  
قال: قلت يارسول الله: أ رأيت إن ضَعُفت عن بعض العمل؟ قال:  
تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك»<sup>(١)</sup>.

وكذلك نجد أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، كثيراً ما يذكر عدداً من الأعمال الفاضلة كما في حديث: «ذهب أهل الدثور بالأجور»<sup>(٢)</sup> وذلك ليكون أمام المسلم فرصة للتنوع حسب الحال والزمان دون ملل أو فتور. ولكن يجب التنبيه إلى أن التنوع في العمل لا يعني الفوضى وعدم الاستقرار، فإن هذا من أسباب الفتور كما أشرت سابقاً، والذي يبدأ العمل ولا يتمه، ويقيم المشروع ثم يتخلى عنه، كالتى نقصت غزلها من بعد قوة.

ولذلك يكون التنوع في الأعمال والعبادات التي يقتصر نفعها على صاحبها والتنوع فيها لا يعني ترك العمل بالكلية، وإنما يعمل العمل فإذا تعب تحول عنه إلى غيره، ثم يعود إليه مرة أخرى، كمن يكون في الحرم مثلاً: يصلي من الليل ماشاء، ثم يقرأ في كتاب الله، أو يذهب ليظوف بالبيت، أو يذكر الله قائماً أو قاعداً أو على جنب. وهكذا في بقية الأعمال والعبادات ويكون التنوع أيضاً في الأعمال التي لا يكون ترك العمل والتحول عنه سبباً لفشله وذهابه، كأن يجد من يحل محله دون أي خلل أو

(١) أخرجه البخاري (١١٧/٣) كتاب العتق، باب [٢] ومسلم (٨٩/١) كتاب الإيمان، رقم (١٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٥/١) كتاب الأذان، باب [١٥٥] ومسلم (٤١٦/١) كتاب المساجد، رقم (٥٩٥).

تقصير، مما هو من فروض الكفايات، أما ما سوى ذلك فعليه أن يجاهد نفسه ويتقي ربه، فسيجعل الله له من أمره يسرا ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا﴾ [سورة الطلاق، الآية: ٤]. ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ [سورة الطلاق، الآية: ٢]. ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾. [سورة العنكبوت، الآية: ٦٩].

#### ١٤. القحوة الصالحة،

للقهوة الصالحة تأثير عجيب في استنهاض الهمم والأخذ بالعزيمة. وكثير من النفوس أو أكثرها لا تؤثر فيها المواعظ والترغيب والترهيب كما يؤثر فيها أن تذكر قصة رجل عصامي أو علم من الأعلام، ولتأخذ هذا المثال:

تحدثت في أكثر من مناسبة عن أهمية الوقت، ووجوب المحافظة عليه، واستدللت لذلك من الكتاب والسنة وسير السلف الصالح وأقوالهم، ثم كنت أختتم الحديث بذكر حياة علم من أعلامنا وشيخ من مشايخنا المعاصرين، وكيف يفيد من وقته، وأنه لا يعرف عنه أنه أضاع بضع دقائق في يومه، أو أنه أخذ إجازة في عامه أو أسبوعه، فكل حياته عمل وجدّ ونشاط، عبادة وعلم ودعوة، وقيام بحقوق الخلق والمخلوق. فكنت أجد أن تأثير هذه القدوة أعظم من تأثير بقية الكلام على أهميته وموضوعيته.

ولذلك فإنني أنبه الدعاة وطلاب العلم والمربين إلى أهمية المكانة التي يتبوّئونها، وأن طلابهم ومحبيهم بل وعمامة الناس يتأثرون بأفعالهم أكثر مما يتأثرون بأقوالهم.

ولما ذكر الله جل وعلا أنبياءه ورسله في سورة الأنعام ختم ذلك بقوله:

﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾. [سورة الأنعام، الآية: ٩٠]. وقال سبحانه: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾. [سورة الأحزاب، الآية: ٢١]. ولذلك فإن ذكر حياة العلماء القدوات وبخاصة المعاصرين منهم يشدّ من أزر العاملين، ويوقظ الكسالى والنائمين، ويكون حجة على المتخاذلين التبريريين، الذين يحتاجون بتغير الزمان، وفساد الأحوال.

نعيبُ زماننا والعيبُ لنا  
وما لزماننا عيبٌ سوانا  
ونهجوا ذا الزمانَ بغيرِ حقِّ  
ولو نطقَ الزمانُ بنا هجانا  
ولنقرأ هذه الكلمات لنعرف أثر القدوة في استنهاض الهمم وشدّ العزائم.

قال ابن الجوزي: لقيت مشايخ أحوالهم مختلفة، يتفاوتون في مقاديرهم في العلم، وكان أنفعهم لي في صحبته العامل منهم بعلمه، وإن كان غيره أعلم منه ولقيت عبدالوهاب الأنطاقي فكان على قانون السلف لم يسمع في مجلسه غيبة، ولا كان يطلب أجراً على سماع الحديث. ولقيت أبا منصور الجوالقي، فكان كثير الصمت شديد التحري لما يقول، متقناً محققاً، وربما سئل عن المسألة الظاهرة التي يبادر بجوابها بعض علمائه، فيتوقف فيها حتى يتيقن.

فانتفعت برؤية هذين الرجلين أكثر من انتفاعي بغيرهما.  
ففهمت من هذه الحالة أن الدليل بالفعل أرشد من الدليل بالقول<sup>(١)</sup>.

(١) انظر صيد الخاطر ٤٤٣.

## وما يلحق في باب القحوة وتأثيرها:

دراسة سير الأنبياء والمصلحين :

إن دراسة سير الأنبياء والمرسلين - عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام - وذلك من خلال القرآن الكريم وماورد في السنة النبوية، وأخذ العبر من حياتهم ومواقفهم مع قومهم، وما واجهوه من مشكلات وعقبات، إن ذلك كله يجعل المسلم يسعى جاداً للحاق بهم واقتفاء آثارهم، ويزيد من صبره وثباته، فكلما واجهته مشكلة ثم قارنها بما لاقاه أولئك احتقرها وسهل عليه تجاوزها، فإن آذاه الناس قال: لقد أؤذي من هو خير مني، وإن كذبه الناس قال: لقد كذب من هو أفضل مني، وهكذا: ﴿أولئك الذين هدى الله فبها هم اقتده﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٩٠]. ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٣٤]. ﴿ولقد جاءك من نبي المرسلين﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٣٤].

وقال الله لنبيه، صلى الله عليه وسلم، في سورة الأعراف: ﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٧٦]. وقال في سورة يوسف: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾. [سورة يوسف، الآية: ١١١].

وما يزيد من حماس المسلم ويشد من عضده معرفة تاريخ المصلحين، وسيرهم مع مجتمعاتهم، وما لاقوه من عنت ومشقة، وكيف صبروا وثبتوا، إن هذا الأمر له تأثير عجيب في حياة الداعية وطالب العلم، كم يصاب الإنسان بحالة من الكسل أو الملل من طلب العلم فيتذكر أولئك الأعلام، وكيف جدوا واجتهدوا فسرعان ما يعود نشيطاً قوياً.

سئل الشعبي من أين لك هذا العلم كله؟ فقال: (بنفي الاعتقاد، والسير في البلاد، وبكور كبكور الغراب، وصبر كصبر الجهاد).  
 وقل مثل ذلك في الداعية إذا واجهته مشكلة أو مصيبة، ثم تذكر أسلافه وملا قوه كالإمام أحمد والعزبن عبدالسلام وابن تيمية وغيرهم، فيعلم أنهم أخذوا بقوله تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون والله معكم﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٣٩].

### ١٥ - علو الهمة ونبل المقصد والأخذ بالعزيمة،

وذلك بأن يكون همّ الإنسان الدار الآخرة، والفوز بالجنة، ومقصده رضا الله جل وعلا، فمن كانت هذه حاله فلن يستقر له قرار حتى ينال مراده، وسيجدّ في الطلب حتى يحصل على بغيته ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ [سورة الحجر، الآية: ٩٩]. ولما قال أحد الصحابة للرسول، صلى الله عليه وسلم: إني أحب مرافقتك في الجنة، قال له المصطفى، صلى الله عليه وسلم: «أعني على نفسك بكثرة السجود»<sup>(١)</sup>.

وإذا علا مقصد الإنسان وشرفت غايته، زهد في الدنيا وشهواتها، ولو كانت بين يديه، فضلاً عن أن يسعى لتحصيلها، ويقضي عمره جامعاً لحطامها، على حساب دينه وعقيدته. ولذلك لما علت همّة عمر بن عبدالعزيز - رضي الله عنه - وجعل لقاء الله غايته وأشرف مقاصده، كان أزهد الناس في الدنيا، وهو خليفة المسلمين، لا يملك إلا ثوباً واحداً، ولا يأكل من الطعام إلا الكفاف دون تقدير أو إسراف، والمال بين يديه، والشمرات من كل مكان تجبي إليه.

(١) أخرجه مسلم (٣٥٣/١) كتاب الصلاة، رقم (٤٨٩).

إن دَنَوَ الهمة وتواضع المقصد يؤدي بالإنسان إلى الدعة والاسترخاء، أما علوها، وبعد مرادها ومرامها، فدونه الجَدُّ والاجتهاد والسهر العنا: وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام وصدق من قال:

أَبَيْتُ سَهْرَانَ الدجى وتبیتهُ  
نوماً وتبغني بعد ذاك لحاقبي؟!  
ومن علامات علو الهمة أخذ النفس بالعزيمة والجَدُّ، وحملها على التضحية، وشغلها بالحق، فإن النفس إن لم تشعلها بالحق شغلتك بالباطل.

وعمر - رضي الله عنه - استعاذ من جلد الفاجر وضعف المؤمن .  
ومن يتهيب صعودَ الجبال  
يعش أبدا الدهر بين الحفر  
١٦ - الإكثار من ذكر الموت والخوف من سوء الخاتمة،  
قال الرسول، صلى الله عليه وسلم: «أكثروا ذكرها ذم اللذات»<sup>(١)</sup> يعني الموت.

وقال، صلى الله عليه وسلم: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور،

(١) أخرجه النسائي (٤/٣) كتاب الجنائز، رقم (١٨٢٤) وابن ماجه (١٤٢٢/٢) كتاب الزهد، رقم (٤٢٥٨)، والترمذي (٤٧٩/٤) كتاب الزهد رقم (٧٠٠٧) قال الترمذي: حسن غريب وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع، رقم (١٢١٠).

فزوروا، فإنها ترق القلب، وتدمع العين، وتذكر الآخرة، ولا تقولوا هجرًا»<sup>(١)</sup>.

إن تذكر الموت والخوف من سوء الخاتمة يبعثان في النفس نشاطًا وجدًا، وخوفًا ووجلًا، والخائف لا يفتر.

(ومن أكثر من ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء :

تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة، ومن نسي الموت عوقب

بثلاثة أشياء :

تسوية التوبة، وترك الرضا بالكفاف، والتكاسل في العبادة)<sup>(٢)</sup>.

وسوء الخاتمة أمر غفل عنه الكثيرون، مع أنه ورد في الحديث

الصحيح : قوله، صلى الله عليه وسلم : «فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم

ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه

الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»<sup>(٣)</sup>.

وقد ذكر ابن القيم في كتابيه الداء والدواء وطريق المهجرتين قصص عدد

من الذين ختم لهم بخاتمة سيئة، حتى إنهم لم يستطيعوا أن يقولوا: (لا إله

إلا الله) وهم يلقنونها، وقالوا غيرها مما تعلقت به قلوبهم في الحياة الدنيا.

ومما يدفع إلى العمل والنشاط رؤية المحتضرين حال النزاع، فقد يبقى

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٧٦/١) وانظر صحيح الجامع رقم (٤٥٨٤).

(٢) ظاهرة ضعف الإيمان للمنجد ص ٥٩.

(٣) أخرجه البخاري (٢١٠/٧) كتاب القدر، باب [١] ومسلم (٢٠٣٦/٤) كتاب

القدر، رقم (٢٦٤٣).

أثره على الفرد حتى يموت. دخل الحسن البصري على مريض يعوده فوجده في سكرات الموت، فنظر إلى كربه وشدة ما نزل به، فرجع إلى أهله بغير اللون الذي خرج به من عندهم، فقالوا له: الطعام يرحمك الله، فقال: يا أهلاه، عليكم بطعامكم وشرابكم، والله لقد رأيت مصرعاً لا أزال أعمل له حتى ألقاه<sup>(١)</sup>.

#### ١٧- الصبر والمصابرة:

طريق العلم والعبادة والدعوة إلى الله طريق شاق، تحفّه المصاعب والمشاق، ﴿الم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ١، ٢]. ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾. [سورة آل عمران، الآية: ١٤٢]. ولما للصبر من عظيم الأثر في الثبات على الطريق، والعصمة من الزلل والانحراف والاستعجال والفتور جاءت الآيات الكثيرة تبين أهميته وتوصي به وتحث عليه، ويصعب حصرها في هذا المختصر، ولكن أذكر بعضاً منها:

﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾، [سورة الشورى، الآية: ٤٣].  
 ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم﴾ [سورة الاحقاف، الآية: ٣٥]. ﴿وبشّر الصابرين﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٥٥]. ﴿سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ [سورة الرعد، الآية: ٢٤]. ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ [سورة القصص، الآية: ٥٤]. ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون

(١) التذكرة ص ١٧، وظاهرة ضعف الإيمان ص ٥٩.

بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴿ [سورة السجدة، الآية: ٢٤] ﴿ وإن  
تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴿ [سورة آل عمران، الآية: ١٨٦].  
﴿ واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴿ [سورة لقمان، الآية: ١٧].  
﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ﴿ [سورة الأنفال، الآية: ٤٦].  
﴿ فاعبده واصطبر لعبادته ﴿ [سورة مريم، الآية: ٦٥]. ﴿ وأمر أهلك بالصلاة  
واصطبر عليها ﴿ [سورة طه، الآية: ١٣٢]. ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴿  
[سورة البقرة، الآية: ٤٥]. ﴿ ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا ﴿ [سورة البقرة،  
الآية: ٢٥٠]. ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله  
لعلكم تفلحون ﴿ [سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠].

أن هذه الآيات وأمثالها تدل على منزلة الصبر والمصابرة وأثرهما في حمل  
الدعوة، وأداء العبادة، وبذل العلم.

ومما يعين المسلم على الصبر ويشد أزره، قراءة سير الأنبياء والمرسلين مع  
أهمهم، وما واجهوه من مصاعب ومشاق، وكذلك أتباعهم، فلم يهنوا ولم  
يضعفوا ولم يستكينوا وصبروا: ﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما  
وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب  
الصابرين ﴿ [سورة آل عمران، الآية: ١٤٦]. ولو لم يكن في الصبر إلا منزلة  
المحبة لكفى بها شرفاً وعزاً بها مطلباً، ﴿ فاصبر صبراً جميلاً ﴿ [سورة المعارج،  
الآية: ٥]. . واكثروا من هذا الدعاء. ﴿ ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا  
مسلمين ﴿ ، [سورة الأعراف، الآية: ١٢٦]. ولا تتمنوا لقاء العدو، ولكن واطنوا  
أنفسكم على إذا لقيتموهم أن تصبروا.

### ١٨ - الدعاء والاستعانة:

ونختم الوسائل المعينة على التخلص من الفتور والنجاة منه بوسيلة من أعظم الوسائل وأقواها تأثيراً ألا وهي «الدعاء» سهام الليل وقذائف النهار. إن الدعاء هو العبادة، وهو صلة بين العبد وربّه، يظهر فيه ضعف المخلوق وقدرة الخالق وربوبيته وعظمته.

ولذلك جاءت الآيات أمره بالدعاء والتضرع إلى الله، وقد وعد سبحانه بالاجابة: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾. [سورة غافر، الآية: ٦٠]. وقال سبحانه: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾. [سورة النمل، الآية: ٦٢]. وأيهما أعظم اضطراباً المصاب بيدنه أم المصاب بدينه، وأيهما أشد سوءاً: بلاء الدنيا أم بلاء الدين؟ والفتور بلاء في الدين تهون عنده مصائب الدنيا. وقال جلّ وعلا: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ [سورة الاعراف، الآية: ٥٥]. وقال: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٨٦]. .

وقد أُرشدنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى الدعاء في حال الفتور فقال: «إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله أن يمدد الإيمان في قلوبكم». <sup>(١)</sup> وهل الفتور إلا وجه من أوجه ضعف الإيمان؟

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤/١) وقال الهيثمي في المجمع (٥٧/١) رواه الطبراني بإسناد حسن.

وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم، وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم، استعاذ من الفتور، والاستعاذة نوع من الدعاء، فقد روى أنس - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يتعوذ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الكسل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من الهرم، وأعوذ بك من البخل»<sup>(١)</sup>.

وعنه قال كنت كثيراً أسمع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهرم والحزن والعجز والكسل» الحديث<sup>(٢)</sup>. وعن زيد بن أرقم - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل» الحديث<sup>(٣)</sup>.

بل كان، صلى الله عليه وسلم، يعلم أصحابه هذه الدعوات فقد روى النسائي بعد أن ذكر الحديث عن زيد بن أرقم قوله: «كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يعلمناهن ونحن نعلمكموهن» . يريد بذلك هذه الدعوات ونحوها.

فعلَى المسلم: أن يلح على الله في حال نشاطه وفتوره، وأن يكون صادقاً مخلصاً موقناً بالإجابة فإن عمر - رضي الله عنه - يقول: «والله أني لا أحمل هم الإجابة، ولكنني أحمل هم الدعاء».

(١) أخرجه البخاري (١٦٠/٧) كتاب الدعوات، باب [٤٢] ومسلم (٢٠٧٩/٤) كتاب الذكر رقم (٢٧٠٦) واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٤/٣) كتاب الجهاد، باب [٢٤].

(٣) سنن النسائي (٢٦٠/٨) كتاب الاستعاذة، رقم (٥٤٥٨).

ومما يدخل في باب الدعاء الاستعانة بالله تعالى، وهي مطلوبة في كل أمر وفي كل حين، ولا أهميتها فإننا نكررها في كل ركعة من صلاتنا ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، [سورة الفاتحة، الآية: ٥]. ولا يمكن للعبد أن يفعل شيئاً إلا بعونه تعالى، فإن حرم من ذلك خاب وخسر:

إذا لم يكن عون من الله للفتى  
فأول ما يجنى عليه اجتهاده  
ولهذا قال الله، سبحانه وفي سورة النور: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكّى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكّي من يشاء﴾ [سورة النور، الآية: ٢١].

وقد علم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ابنته فاطمة أن تسأل الله إذا أصبحت وإذا أمست إلا يكلها إلى نفسها طرفة عين، وهذه حقيقة الاستعانة، فقد روى الحاكم والنسائي والبخاري وغيرهم عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لفاطمة - رضي الله عنها -: «ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به؛ أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمست: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، وأصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفس طرفة عين أبداً»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه النسائي في اليوم والليلة رقم (٥٧٠) وابن السني رقم (٤٨) وصححه الألباني كما في صحيح الترغيب رقم (٦٥٤).

وأودعك أخي الكريم بهذا الدعاء<sup>(١)</sup>:

بقيت مدى الدهر وعلمك راسخ

وخيرك ممدود وليك عامر

يوذ سنالك البدر والبدر زاهر

ويقفونداك البحر والبحر غامر

وهتئت أياماً توالي نشاطها

كما تتوالى في العقود الجواهر

(١) انظر جواهر الأدب ٢ / مع تغيير الكلمات لتناسب المقام.

## الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين...

وبعد:

فقد عرفنا من خلال الصفحات التي مضت خطورة الفتور وآثاره على الفرد والمجتمع، وهذا يتجلى من معرفة المظاهر والأسباب، ثم اتضحت لنا وسائل الوقاية والعلاج.

وفي هذه الخاتمة أوضح مسألة قد تغيب عن كثير من الناس ألا وهي أهمية المبادرة إلى العلاج بل وجوب ذلك تبعاً لوجوب الدعوة، ووجوب حماية النفس من سبل الانحراف.

إن الكثير منا قد يكتشف أنه وقع في داء الفتور، ومن ثم عرف السبب والعلاج، ولكنه لا يسارع إلى طريق النجاة وسبل الخلاص.

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة﴾ [سورة التحريم، الآية: ٦]، وبما هو مقرر في قواعد الشريعة أن مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والله أمرنا بالمسابقة إلى الخيرات فقال سبحانه: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم

عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٣٣]، وقال جل وعلا: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء

والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴿[سورة الحديد، الآية: ٢١]، وأثنى على المؤمنين فقال: ﴿أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ٦١]. والذي يتأمل في كثير من مظاهر الفتور وأسبابه يجد أن كل واحد منها يمثل ذنباً ومعصية تجب التوبة منها: ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبه نصوحاً﴾ [سورة التحريم، الآية: ٨]، وقال تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ [سورة النور، الآية: ٣١]، وقال: ﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ [سورة الحجرات، الآية: ١١]. والنجاة من الفتور والسلامة منه لا يعدو إما أن يكون إقلاعاً من ذنب أو مسارعة إلى خير، وكلاهما أمران مشروعان يدوران بين الوجوب والتدب.

ومن هنا فإني أوجه عناية طلاب العلم والدعاة للعناية بموضوع الفتور بياناً وتشخيصاً وتحذيراً من آثاره وعواقبه، وكذلك عليهم أن يحثوا الناس للمبادرة إلى تلافيه والخلاص منه.

وأخص المربين بأن يوجهوا اهتمامهم لدراسة مظاهر الفتور وأسبابه ومن ثم سبل الوقاية منه، وذلك حماية لتلاميذهم من الوقوع فيه حتى لا تذهب الجهود هدراً.

وأخيراً فإن على الشباب بصفة خاصة أن يولوا هذا الموضوع حقه صيانة لأنفسهم، ومعرفة للشر قبل وقوعه، ويتأكد هذا وهم في فترة النشاط والحماس، فإن لكل عمل شرّة ولكل شرّة فترة، كما أخبرنا الصادق

المصدق، صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup>.

إن هذه اليقظة المباركة والصحة الرائدة تحتاج إلى حماية من داخلها وخارجها، ومن أعظم ما يهددها من الداخل أن يسرى الفتور إلى جسدها، ويدبّ في أوصالها ومفاصلها، هنالك يهون على الأعداء تحقيق مآربهم، والوصول إلى غاياتهم، وعندئذٍ ستجد من يلقي باللائمة عليهم، وكأنه لم يفقه قوله تعالى: ﴿أولمّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم﴾. [سورة آل عمران، الآية: ١٦٥].  
ومن هذا المنطلق جاءت هذه الرسالة؛ تليغاً وتنبهاً وتذكيراً وتعليةً وتحذيراً.

اللهم هل بلغت .. اللهم فاشهد.  
والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) تقدم تخرجه مراراً.